الشيخ على يوسف

للأستاذ عبد العزيز البشرى

الشيخ على يوسف

فى يوم ٢٥ أكتوبر من سنة ١٩١٣ والقلوب واجفة ، والأبصار زائغة ، ومصاير الأمور تتوائب للأوهام فى صوَر مبهمة غامضة ، تضطرب بين اليأس كله ، وبين الرجاء كله ، والناس يتساءلون متهامسين من الخوف ومن الورع : تُرى ماذا عسى أن يكون قسم مصر من هذه الحرب العامّة ، وماذا كتبت لها الأقدار ، فى صفحتى الليل والنهار ؟

فى ذلك اليوم من تلك الأيام السوداء مات رجل ليس مثله فى مصر كثير ، رجل إذا أحبه ناس أشد الحبّ ، فلأنه قوة كبيرة فى مصر . وإذا كرهه ناس أشد الكره ، فلأنه قوة كبيرة فى مصر ، فالشيخ على يوسف ، على تفرق الأهواء فيه ، كان قوة هائلة فى هذه البلاد يحسب الناس جميعاً لها كل حساب

ولقد كنت من الذين أبغضوا الشيخ علياً أبعد البغض ، ثم كنت من الذين يحبونه أغلى الحبّ ، ولا والله ما رأيته فى حالى بغضى وحبى له إلاّ رجلا عظيما !

مات الشيخ على يوسف فى ذلك اليوم فما قامت الدنيا لموته كما كان ينبغى أن تقوم ، ولا قعدت الدنيا لموته كما كان ينبغى أن تقعد ؛ بل لقد شيِّع ودُفن كما يُشيّع ويُدفن أوساط الناس ، وكأن الناس لم يشيعوا فيه مفخرة من مفاخر مصر ، ولا أودعوا الضريح كنزاً من كنوزها الثّمان !

لا أقول إنه الاهمال السيّ ، ولكن أقول إنه الظرف السيّ ولا أريد المزيد

والآن تسأل الشباب المثقفين المتعلمين عن الشيخ على يوسف ، وكيف كان خطبه فى البلاد من إحدى وعشرين سنة فقط ، فترى أقلهم من لا يعرف عنه كثيراً ، وترى أكثرهم من لا يعرف عنه كثيراً ولا قليلا !

أهكذا ، وبهذه السرعة السريعة ، تختفى سيَر الرجال عندنا كما تختفى الصور إذا ساد الظلام ، أو كما تختفى أشباح الرُّؤى ساعة الهبوب من المنام ؟

وإننى لأضيف الوزر فى هذا أيضاً على الظروف . والحمد لله الذى جعل لنا من هذه (الظروف) تكأة نعتمد عليها كلما غشيتنا غاشية من الاهمال ، أو طاف بنا طائف من سيّ الأعمال !

* * *

ولقد قُلّد الشيخ على منصب مشيخة السجادة الوفائية ، فاستحق بهذا أن يسمى السيد علياً ؛ وقلده الخليفة العثمانى الرتبة الأولى من الصنف الثانى ، فاستحق بذلك أن يدعى على بك أو على باشا يوسف ؛ ولكننى لا أعبّر عنه إلاّ بالشيخ على يوسف . هذا الاسم الذى طالما رنّ فى الآذان ، وتجاوبت به الأصداء من كل مكان : الشيخ على يوسف ! الشيخ على يوسف ! وحسبه بهذا لقباً ، بعد ما اعتز بنفسه حسباً ، وكرُم بالرسول الأعظم نسباً

كان الشيخ على يوسف رجلا عصامياً بأوفى معانى الكلمة . نجم فى (بلصفورة) من بلاد مديرية جرجا ، فى أسرة إذا كرم أصلها فقد رقّت حالها . ولا تنس أن المال هو كل شىء فى هذا الزمان . وتعلم القراءة والكتابة فى كتّاب القرية ، وحفظ القرآن الكريم . ثم انحدر إلى بنى عدىّ من أعمال مديرية أسيوط . فطلب العلم هناك على الشيخ حسن الجوارى ، ثم قدم الأزهر فطلب العلم فيه بضع سنين

وإلى هنا كانت حياة الشيخ على حياة عادية بحتاً ، فلم يزد خطبه على مجاور مغمور فى ذلك الحضرم الزاخر بآلاف المجاورين .

وتستشرف نفس الفتى للأدب . والأدب فى ذلك الوقت أن تقول شعراً مقفى موزوناً . فاذا أعوزك العروض ، وعميت عليك أوزان الشعر ، فحسبك أن يكون الصراع فى طول الصراع . فان

زاد الكلم فى تصغير الكتابة وتدقيق الحروف متسع للجميع . وعلى شرط أن تتنزّل . فتتنزل كلما طلبت مديحاً ، وتتنزل كلما أردت رثاءً ، وتتنزل كلما ابتغيت هجاء . وكانت هذه ، وخاصة فى البيئة الأزهرية أهمّ فنون الشعر ، إن لم تكن جميع فنون الشعر .

وعلى هذا قرض الشعر المجاور على يوسف ، فذهب له به بين المجاورين صيت وذكر

ولقد كان الأدب يحمد من المجاور عند أشياخه إلا أن يسرف فيه ويجرد له صدراً كبيراً من وقته ، فانهم كانوا يكرهون ذلك منه ، لأنه فى الواقع يشغله ، بقدر ما ، عن توفير الذهن على الدرس والاستذكار ، ويرون هذا منه آية على (عدم الفتوح) والعياذ بالله ! وحسبه فى العام قصيدة يمدح بها شيخه يوم يختم الكتاب ، وقصيدة أو اثنتين يرثى بهما من يموت من عِلية العلماء

وأسرف الشيخ علىّ فى قرض الشعر ، فمدح ورثى ، وتغزّل (بالطبع) وهجا ، حتى اتسق له من هذا النظم ما جمعه بعد فى ديوان كامل ، وبهذا أصبح مجاوراً ممتازاً و إن حق عليه القول ، وتراءى له شبح الهول !

إذن أصبح الشيخ مجاوراً ممتازاً بين المجاورين بالأدب ، أو إن شئت قلت ، لقد أدركته من الناحية الأزهرية ، حرفة الأدب

ولقد دعاه هذا إلى الاختلاف إلى مجالس الأدباء ، ومساهرتهم ومسامرتهم والتروّى عنهم ، ثم إلى غشيان دور بعض العلية ممن كانوا يجلسون لأهل العلم والفضل والأدب ، فيتحاضرون ويتذاكرون . وأقبل الشيخ على هذا الشأن بقدر ما أدبر عن الكد فى دروس الأزهر . ثم جعل يرسل المقالات المنثورة فى الصحف والمجلات التى كانت قائمة فى ذلك الوقت ، وكان يكتب أول الأمر على طراز الكاتبين فى عصره : مقدمات طويلة تمهّد بين يدى كل موضوع ولو لم تدع إليها حاجة الكلام ، واحتفال للمحسنات البديعية تستكره استكراهاً ، ولو استهلكت الغرض المطلوب

على أن من حسن حظ الشيخ علىّ أنه ابتدأ فى معالجة الكتابة فى الوقت الذى انبعثت فيه تلك النهضة البيانية الفاخرة ، تلك النهضة التى نفخ ضرامها بالأرشاد والتنبيه السيد جمال الدين الأفغانى ، وبالفعل من الأنشاء والتعليم والتأليف الشيخ حسين المرصفى ، وللشيخ على طبيعة ، وفيه فطنة قوية ، فجعل يدرّب قلمه ويروضه على إرسال البيان سهلاً جزلاً خالياً من الاعتساف ، متطلّقاً من تكاليف البديع

وفى هذا المقام يجدر بى أن أنبه إلى شىء جدير بالانتباه : ذلك أن حسن البيان وجودة المقال لاترجع فى جميع الأحوال إلى تمكن الكاتب من ناصية اللغة ، وتفقهه فى أساليبها ، وبصره بمواقع اللفظ منها ، واستظهاره لصدر صالح من بلاغات بلغائها ، إلى حسن ذوق ورهافة حسّ ، بحيث يتهيأ له أن يصوغ فكرته أنور صياغة ، ويصورها أبدع تصوير . بل إن ذلك ليرجع فى بعض الأحوال ، وهى أحوال نادرة جداً ، إلى شدة نفس الكاتب وقوة روحه . فقد لا يكون الرجل وافر المحصول من متن اللغة ، ولاهو على حظ كبير من استظهار عيون الكلام ، ولاهو بالمعنىّ بتقصى منازع البلاغات ، ومع هذا لقد يرتفع بالبيان إلى ماتتقطّع دونه علائق الأقلام . ذلك لأن شدة نفسه ، وجبروت فكرته ، تأبى إلا أن تسطو بالكلام فتنتزع البيان انتزاعا . ولعل فى بيان السيد جمال الدين الأفغانى ، وهو غريب عن العربية ، وقاسم بك أمين وهو شبه غريب عنها ، أبين مثال على هذا الذى نقول . ولقد يعجب القارىء أشد العجب إذا زعمت له أن المرحوم حسين رشدى باشا ، وكان رجلاً قلّ أن تطّرد على لسانه ثلاث كلمات عربية متواليات ، لقد كان أحياناً يرتفع بالعبارة الى مايتخاذل من دونه جهد أعيان البيان !

والآن أستطيع أن أزعم أن الشيخ على يوسف ، على أنه تعلم فى الأزهر ، وقرأ طرفاً من كتب الأدب ، واستظهر صدراً من مظاهر البلاغة فى منظوم العربية ومنثورها — إلاّ أنه لم يكن مديناً فى بيانه لشىء من هذا بقدر ما كان مديناً لشدة روحه وسطوة نفسه . وإنك لتقرأ له المقال يخلبك ويروعك ، وتشعر أن أحداً لم يته فى البيان منتهاه . ثم تُقبل على سيئه تفتشها وتفرّها ، فلا تكاد تقع على شىء من هذا النظم الذى يتكلّفه صدور الكتاب . وبهذا أنشأ الرجل لنفسه أسلوباً ، أو على الصحيح لقد خط قلمه القوىّ نهجاً من البلاغة غير ماتعاهد عليه الناس من منازع البلاغات

ولندع الآن بيان الشيخ على وأثره ، فلذلك موضع آخر من هذا الحديث . ونعود إلى تاريخ الرجل فنقول إنه ما كاد يستوى له ذلك القدر من الأدب حتى أنشأ مجلة دعاها (الآداب) . وهى وإن لم تكن شيئاً يذكر بالقياس إلى المجلات الأدبية القائمة الآن ، إلاّ أنها كانت شيئاً مذكوراً بالقياس إلى المجلات التى كانت قائمة فى ذلك العهد . وخاصة بعد إذ عفى الزمن على مجلة روضة المدارس التى كان يقوم على تحريرها وإجالة الأقلام بروائع البيان فيها صدورُ العلماء والشعراء والكتاب

المؤيد

وإذا قلت « المؤيد » قلت شطر من تاريخ مصر محتفل بالأحداث العظام

راع أهل الرأى فى مصر أن ليس لهذه الأمة ، أعنى للمسلمين وهم كثرتها الكثيرة ، صحيفة تتحدث عنها وتدلى بحاجتها . وتترجم عن أمانيها ، وتذود عن حقوقها وكرامتها . وإن أمة ليس لها فى هذا الزمان صحيفة ، لهى أمة لا تحسّ لنفسها وجوداً . ولقد قوى الشعور بشدة الحاجة إلى صحيفة وطنية إسلامية بعد إذ صدر المقطّم صحيفة تظاهر الاحتلال الانجليزى ، وتروّج للسياسة الانجليزية فى هـــذه البلاد ، وتدفع فى صدر الأمانى القومية ما اعترضت تلك السياسة فى يوم من الأيام . وهنا يتقدم الشيخ على مع صاحب له يدعى الشيخ أحمد ماضى فينشئان جريدة المؤيد يومية سياسية وطنيـة إسلامية . ثم لا يلبث الشريكان أن يختلفا ، ولا يخرج أحدهما عن الشركة إلاّ على مال ، والمال فى يد الشيخ على أقلّ من القليل . وهنا تحركت أريحية بعض كبار المصريين فأدوا المال عن الشيخ إلى صاحبه . وهكذا خلص المؤيد للشيخ على يوسف . وكان للمرحوم سعد باشا زغلول فى هذا سعى مشكور

وأذكر أنه لما أتى رحمه الله ، بمطبعة جديدة من طراز (الروتاتيف) وعقد لذلك حفلاً جامعاً فى إدارة المؤيد خطب فى الجمع فأتى فى سيرة المؤيد على هذه الحادثة ، ونوّه بفضل سعد بك زغلول (المستشار بمحكمة الاستئناف) الذى أبى أن يسمع هـذه الخطبة إلاّ واقفاً

وجرى المؤيد طلقاً ، والله يعلم كم عانى الشيخ على فى إخراجه فرداً لا مُسعد له من معين أو من مال . الحق أن الرجل لقد جاهد فى هذا جهاد الحماة ، وعانى عناء لو صوّره القلم على حقيقته لظنه الناس من إحدى القصص التى تمثلها أخيلة الكتاب . وهكذا لم يمض زمن طويل حتى جنى ثمرة الصبر العجيب (إنّ الله مع الصّابرين) صدق الله العظيم

مضى المؤيد يحرره الشيخ على يوسف ، ويرفده بالمقالات البارعة أعيانُ أهل الرأى والعلم والأدب فى البلاد من أمثال المرحومين الشيخ محمد عبده ، وسعد باشا زغلول ، وقاسم بك أمين ، وفتحى بك زغلول ، وحفنى بك ناصف ، وكثير غيرهم من أصحاب البيان . وكانوا يُسرّون أسماءهم فى الأحاديث السياسية ، بوجه خاصّ ، فذلك مما لا تأذن به المناصب الحكومية بحال . وكذلك أضحى المؤيد مجالاً لأفحل الأقلام وأنضج الآراء . بل لقد أضحى المدرسة التى تخرج عليها من شهدوا الجيل الماضى من أعلام البيان

ويسير المؤيد ، ويذهب صيته لا فى مصر ولا فى العالم العربىّ فحسب ، بل فى العالم الإسلامىّ كله ، فلقد أصبح لسانه المعبّر أفصح تعبير عن حقيقة حاله ، والمترجم أنصح ترجمة عن آلامه وآماله ، ومتحدّث أخبار المسلمين وراويها ، وملتقى أفكارهم فى قواصى الأرض وأدانيها

لا يرحل الناسُ إلا نحو حجرته ... كالبيت يفضى إليه ملتقى السُبُل

وحسبنا هـذا القدر الآن فى المؤيد وفى صاحب المؤيد . وسنعاود الحديث فيه إن شاء الله تعالى عسى أن نوفيه بعض حقه إن لم نوفه كل حقه . رحمة الله عليه !

عبد العزيز البشرى

ضحى الاســـــلام

وهو الكتاب الثانى لفجر الاسلام

للأستاذ احمد أمين

ثمنه ٢٠ قرشاً